المركز المغاربي للبحوث و الترجمة
Maghreb Center for Researches & Translation

المرأة
بين القرآن وواقع المسلمين

الشيخ راشد الغنوشي

حقوق الطبع والنشر محفوظة

الطبعة الثالثة
طبعة مزيدة ومنقحة
١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠ م

المركز المغاربي للبحوث و الترجمة
Maghreb Center for Researches & Translation

34, Tyrell Close - LONDON
HA1 - 3UX - UK
Fax: 00 44 181 8643563
E-mail: Maghreb2000@yahoo.com

القسم الأول

المرأة
في القرآن الكريم

الحلقة الأولى*:

مُقَدِّمَة

إن صلاح الإنسان ورعايته من أجل تحقق أقصى الكمالات الممكنة لطبيعته هو الهدف الأساسي للقرآن الكريم، ورغم ما بين الناس من اختلاف في اللون والجنس والمدارك والمواطن فليس لذلك من أثر في عموم الخطاب القرآني، "ولذلك صرح علماء الأمة بأن خطاب القرآن بصيغة التذكير يشمل النساء، ولا تحتاج العبارات من الكتاب والسنة في إجراء أحكام الشريعة على النساء إلى تغيير الخطاب من تذكير إلى تأنيث"[1].

فالأصل إذن في الخطاب القرآني عموم الرجال والنساء إلا ما ثبت اختصاصه، ولكن وراء ذلك العموم خصت المرأة في القرآن الكريم باهتمام كبير منذ نشأة النوع البشري، فتحدث القرآن عن مكانتها في التصور الديني وفي الأسرة وفي المجتمع وسائر علاقاتها الاجتماعية. كما تحدث القرآن عن نماذج نسائية وحملت ثاني أطول سورة في القرآن اسم (سورة النساء) وتجاوزت الآيات التي خصت بالحديث عن النساء مائتين وخمسين آية.

وسنحاول في هذه الحلقات استعراض عدد من الموضوعات النسائية في القرآن ملقين عليها أضواء من مشكاة أئمة الفكر الإسلامي عبر تاريخ هذا الفكر ممثلاً خاصة في كتب التفسير وهي تمثل الجهد البشري في استجلاء وتفهم الوحي وتبين مراده. وبديهي أن التفسير عمل بشري مهما توفرت له من أدوات

---

* هذه الحلقة والأربع التي تليها كتبت بسجن الناظور سنة ١٩٨٤.

(١) العلامة محمد الطاهر بن عاشور، مقاصد الشريعة الإسلامية: ص ٢٤٢، تحقيق الأستاذ محمد الطاهر الميساوي (دار الفجر - دار النفائس) الطبعة الأولى ١٩٩٩.

الصنعة يبقى محدوداً بحدود ملكات المفسر ومدى تأثره بالاتجاهات الثقافية والمناهج التفسيرية السائدة في عصره، ومستوى تطور العلم ما يجعل تلك الجهود مهما كانت ضخامتها لا تعدو كونها اجتهادات مأجوراً ومشكوراً عليها أصحابها. ولكن النص القرآني تبقى له ذاتيته واستقلاله وتعاليه وامتناعه عن التحديد في أي قالب تفسيري، محتفظاً بثرائه اللامحدود وقابليته لإنتاج فيضات غزيرة من المعاني والحكمة المتجددة بحسب ارتقاء الفكر وتطور العلوم. ولعل ذلك بعض ما عناه حبر القرآن وترجمانه "ابن عباس" رضي الله عنه إذ قال: "القرآن يفسره الزمن"(١).

أصل واحد:

﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء﴾ [أول آية من سورة النساء].

إن مسألة النوع الإنساني من أكثر المسائل التي شغلت ولا تزال تشغل الفكر البشري منذ أقدم العصور، وذهبت فيها مذاهب شتى اختلطت فيها الحقيقة بالأسطورة لدرجة يصعب التمييز بينها، وأكثر الآراء انتشاراً في الوسط الديني يوم ظهر الإسلام ما ورد في سفر التكوين في الفصل الثاني من أن الله خلق آدم وخلق من ضلعه الأيسر وهو نائم حواء، ورغم أن شيئاً من ذلك لم يرد في نصوص القرآن والسنّة، فقد ذهب جمهور المفسرين إلى اعتبار النفس الواحدة في هذه الآية وغيرها هي آدم، وأن حواء خلقت من ضلعه، على حين ذهب مفسرون آخرون قدامى ومحدثون إلى أن هذا الفهم ليس ملزماً بل هناك ما هو أولى منه بسياق الآية، بل وهّن بعض المفسرين المحدثين الروايات المتضمنة لهذا المعنى بأنها مشوبة بالإسرائيليات لا يمكن أن تعتمد عليها (٢).

---

(١) ابن كثير في التفسير.

(٢) سيد قطب، في ظلال القرآن، ج ٣. دار الشروق.

نقل الرّازي عن أبي مسلم أن معنى ﴿خَلَقَ منها زَوجَها﴾ خلقه من جنسها فكان مثلها[1].

فأصل البشر زوجان مخلوقان من جنس واحد أو مادة واحدة. فكأن الآية حسب هذا التفسير ابتغت أن تبرز فكرة التماثل والتساوي، وتضرب فكرة التمييز والمفاضلة بين شقي الإنسانية وتستبعد في نفس الوقت كل تفكير عنصري يقوم على تفضيل جنس أو شعب أو لون على جنس أو شعب أو لون آخر اعتماداً على مجرّد هذا الوصف.

يورد الرازي ثلاث تأويلات لهذه الآية: "التأويل الأول ما ذكره عن القفّال وهو أنه تعالى ذكر هذه القصة على سبيل ضرب المثل. والمراد خلَق كل واحد منكم من نفس واحدة وجعل منها جنسها زوجها إنساناً يساويه في الإنسانية... الخ. والتأويل الثاني: أن الخطاب لقريش الذين كانوا في عهد النبي ﷺ وهم آل قصيّ وأن المراد بالنفس الواحدة قصي. والتأويل الثالث أن النفس الواحدة آدم"[2].

ويرجح الرازي من بين هذه التأويلات التأويل الأول ويؤصله لغوياً وعقلياً دافعاً بقوة التأويلين الآخرين والأخير خاصة، وكأن الثاني غير جدير حتى بالرد لتصادمه مع التوجه الإنساني للقرآن الكريم. يقول:

ويمكن أن يجاب بأن كلمة "من" [في قوله تعالى ﴿خلقكُمْ من نَفْسٍ واحدَة﴾] لابتداء الغاية، فلما كان ابتداء الخلق والإيجاد وقع بآدم عليه السلام [أي ابتدأ الخلق به] صح أن يقال: (خلقكم من نفس واحدة) وأيضاً فلما ثبت أنه تعالى قادر على خلق آدم من التراب كان أيضاً قادراً على خلق آدم من التراب، وإذا كان الأمر كذلك فأي فائدة في خلقها من ضلع من أضلاع آدم؟ ويعلق الأستاذ رشيد رضا بقوله: "وهو يدل على اختيار ما اختاره أبو مسلم ومثله الأستاذ الإمام

(١) محمد رشيد رضا، تفسير المنار– ص٣٣٠ المجلد ٤.

(٢) نفس المصدر، ص٣٢٥.

محمد عبده"[1]. ويضع الأستاذ الإمام الآية في سياقها دافعاً تأويل الجمهور للنفس الواردة في الآية من أنها تخص أحكام اليتامى ونحوه، وكأنه يقول: "يا أيها الناس خافوا الله واتقوا اعتداء ما وضعه لكم من حدود الأعمال واعلموا أنكم أقرباء يجمعكم نسب واحد وترجعون إلى أصل واحد فعليكم أن تعطفوا على الضعيف كاليتيم الذي فقد والده وتحافظوا على حقوقه".

ويضيف "أنه ليس المراد بالنفس الواحدة آدم بالنص ولا بالظاهر، والقرينة على أنه ليس المراد هنا بالنفس الواحدة آدم قوله ﴿**وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء**﴾ بالتنكير، وكان المناسب على هذا الوجه أن يقول: وبث منهما جميع الرجال والنساء، وكيف ينص على نفس معهودة والخطاب عام لجميع الشعوب. وهذا العهد ليس معروفاً عند جميعهم. فمن الناس من لا يعرفون آدم ولا حواء ولم يسمعوا بهما. وقد أبهم الله تعالى أمر النفس التي خلق الناس منها وجاء بها نكرة فندعها على إبهامها.

"وأقول زيادة في الإيضاح إذا كان جماهير المفسرين فسّروا النفس الواحدة هنا بآدم فهم لم يأخذوا ذلك من نص الآية ولا من ظاهرها"، بل المسألة المسلمة عندهم وهي أن آدم أبو البشر..

والذي يريد أن يصل إليه الشيخ عبده ليس نفي كون آدم أبا البشر، وإنما كون ذلك أمراً ثابتاً فالقرآن يثبته إثباتاً قطعياً لا يحتمل التأويل[2].

والذي يميل إليه الأستاذ الإمام "أن المتبادر من لفظ النفس بصرف النظر عن الروايات والتقاليد والمسلمات، أنها هي الماهية أو الحقيقة التي كان بها الإنسان هو الكائن الممتاز على غيره من الكائنات أي خلقهم من جنس واحدة وحقيقة واحدة"[3]، بل إن النص القرآني لا ينفي في رأي الأستاذ الإمام أن تكون النفس الأولى هي حواء وليس آدم..

---

(١) محمد رشيد رضا، تفسير المنار، ص ٢٢٥-٢٣٢.
(٢) تفسير المنار، ص. ٣٢٤-٣٢٦، ٣٨٣.
(٣) نفس المصدر ص٣٢٧.

يقول هذا: وإن في النفس الواحدة وجهاً آخر وهو أنها الأنثى، ولذلك أنّثها حيث وردت وذكر زوجها الذي خلق منها في آية الأعراف فقال ﴿لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾.

وعليه يظهر افتتاح السورة بها ووجه تسميتها بالنساء أكثر.

وأصحاب هذا الرأي يقولون: إنه من قبيل ما هو ثابت إلى اليوم عند العلماء من التوالد البكري وهو أن إناث بعض الحيوانات الدنيا تلد عدة بطون بدون تلقيح من الذكور[1]..

على كل حال وكل قول يصح أن جميع الناس هم من نفس واحدة هي الإنسانية التي كانوا بها ناساً وهي ما يتفق الذين يدعون إلى خير الناس وبرهم ودفع الأذى عنهم على كونها هي الحقيقة الجامعة، فتراهم على اختلافهم في أصل الإنسان يقولون عن جميع الأجناس والأصناف: أنهم إخوتنا في الإنسانية، فيعدون الإنسانية مناط الوحدة والألفة والتعاطف بين البشر، وهذا المعنى هو المراد من تذكير الناس بأنهم من نفس واحدة لأنه مقدمة للكلام في حقوق الأيتام والأرحام وليس كلاماً مستقلاً لبيان مسائل الخلق والتكوين بالتفصيل، لأن هذا ليس من مقاصد الدين.. ونفس الأمر أن الناس مخلوقون من الزوجين: الذكر والأنثى وهما نفسان اثنتان سواء خلقتا مستقلتين أم خلقت إحداهما من الأخرى كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا...﴾[2].

وهكذا يجتهد الإمام في تحرير النص القرآني حول مسألة أهل الجنس البشري من كل التراث الأسطوري والديني الذي سبق الإسلام، والذي كان له

---

(١) وذلك مثل النحلة التي تلقح مرة واحدة ليستمر توالدها بعد ذلك إلى نهاية حياتها ويذهب بعض علماء الطبيعة والبيولوجيا اليوم إلى أن الأنثى هي الأصل. أنظر كتاب "الأنثى هي الأصل" لنوال السعداوي، وذلك بقطع النظر عن الجنوح بالأمر إلى محض عصبية أنثوية تركز جهدها في الانتصار لحقوق المرأة على حرب الرجال!!

(٢) تفسير المنار، ص ٣٣١-٣٣٢.

تأثيره الواضح على كثير من رجال الفكر الإسلامي في فهمهم للنص القرآني، ولم ينته الأستاذ الإمام في تفسير النفس الواحدة التي أشار إليها النص القرآني إلا إلى دحض كل تأويل ثبوتي للنص فاتحاً بذلك مجالاً واسعاً من حرية البحث والتفكير أمام العقل والتطور العلمي على النحو الذي لا يوقع المتدين في الحرج والتمزق والجمود والتحجر.

ويؤكد العلامة الشيعي محمد حسين الطباطبائي صاحب "الميزان في تفسير القرآن" على اتجاه الأستاذ الإمام في تفسير آية النساء المذكورة، يقول: وظاهر الجملة، أعني قوله: ﴿وخَلَقَ منها زَوجَها﴾ أنها بيان لكون زوجها من نوعها بالتماثل وأن هؤلاء الأفراد المبثوثين مرجعهم جميعاً إلى فردين متماثلين متشابهين فلفظة (من) نشوئية، والآية في مساق قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم ٢١].

وقوله تعالى: ﴿واللهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً وجَعَلَ لَكُمْ مِن أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾ [النحل ٧٢].

وقوله تعالى: ﴿فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً وَمِنَ الأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ﴾ [الشورى ١١].

ونظيرها قوله: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ [الذاريات ٤٩].

فما ورد في بعض التفاسير من أن المراد من هذه الآية أن زوج هذه النفس مشتقة منها، وخلقها من بعضها وفقاً لما في بعض الأخبار: إن الله خلق زوجة آدم من ضلع من أضلاعه مما لا دليل عليه في الآية"[١].

أما الأحاديث النبوية التي تعرضت لخلق المرأة والتي يبدو أنها أوقعت كثيراً من المفسرين في شبكات الإسرائيليات إذ حملوا ما ورد في القرآن من حديث عن النفس الأولى أصل النوع البشري من أن تلك النفس هي آدم وأن حواء خلقت من ضلعه، وذلك فيما يبدو بسبب التشابه اللفظي بين قصة الخلق

---

(١) الميزان في تفسير القرآن، المجلد الرابع، منشورات مؤسسة الأعلمي، بيروت - لبنان

وخـلق حواء كما وردت في التوراة وبين تلك الأحاديث مثل: "**إن المرأة خلقت مـن ضـلع فإن ذهبت تقوّمها كسرتها وأن تدعها ففيها أود وبلغة**" رواه أحمد والنسـائي عن أبي ذر ﷺ، "**إن المرأة خلقت من ضلع لن تستقيم لك على طريقة فإن استمتعت بها استمتعت بها وبها عوج، وإن ذهبت تقيمها كسرتها وكسرها طلاقها**" رواه مسلم والترمذي عن أبي هريرة.

"**إن المرأة خلقت من ضلع وإنك إن ترد إقامة الضلع تكسرها فدارها تعش بها**" رواه أحمد وابن حبان والحاكم في المستدرك(١).

إنــه ليس في هذه الأحاديث ما يستدل به من قريب أو بعيد على تأييد ما ورد فــي كـتب اليهـود من أن حواء خلقت من ضلع آدم، بل كل ما تضمنته توجيهات تربوية للرجال في التعامل مع النساء بالرفق والمودة بعيداً عن العنف والعجـرفة. وقـد جرت على عادة أسلوب العرب في التمثيل وتقريب المعاني المجـرّدة فـي صياغتها في صور حسية، يقول صاحب المنار في تفسير آية الأعراف: ﴿**هُـوَ الَّـذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا**﴾ والآية تدل على أن آدم كان له زوج أي امرأة، وليس ما في القرآن مثل ما في التوراة من أن الله تعالى ألقى على آدم سباتاً انتزع في أثنائه ضلعاً من أضلاعه فخلق له منه حواء، وأنها سميت امرأة لأنها من امرئ أُخذت، وما روي في هذا المعنى فهو مأخوذ من الإسرائيليات.

وحديـث أبي هريرة في الصحيحين "**فإن المرأة خلقت من ضلع**" على حد خـلق الإنسان من عجل بدليل قوله فإن ذهبت تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج، **فاستوصوا بالنساء خيراً**"، أي لا تحاولوا تقويم النساء بالشدة(٢).

ولا يتردد الأستاذ سيد قطب على حرصه الشديد على التزام المنهج السلفي في تفسيره في التأكيد على نفس الاتجاه في هذه القضية يقول: فالنص الذي معنا

---

(١) الأحـاديث الـثلاثة أخـرجها وصححها العلامة محمد ناصر الدين الألباني في صحيح الجامع الصغير. منشورات المكتب الإسلامي.
(٢) تفسير المنار، م س.

وأمثاله في القرآن الكريم لا تتحدث عن هذا الغيب بشيء. وكل الروايات التي جاءت عن خلقها من ضلعه مشوبة بالإسرائيليات، لا نملك أن نعتمد عليها، والذي يمكن الجزم به هو فحسب أن الله خلق له زوجاً من جنسه فصارا زوجين اثنين، والسنة التي نعلمها عن كل خلق الله هي الزوجية: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

فهي سنة جارية وهي قاعدة في كل خلق الله أصيلة، وإذا سرنا مع هذه السنة فإن لنا أن نرجح أن خلق حواء لم يمكث طويلاً بعد خلق آدم، وأنه تم على نفس الطريقة التي تم بها خلق آدم"[1].

النتيجة:

إنه ولئن ذهب أكثر المفسرين إلى تأول النصوص القرآنية المتعلقة بمسألة خلق آدم وزوجه عليهما السلام إلى اعتبار حواء مخلوقة من ضلع آدم حقيقة مسلّمة، فإن هذا التأويل وإن أمكن لتلك النصوص أن تتحمله، فإنها لا تقتضيه حتماً بل هي تقتضيه كما تقتضي غيره، وإنما الذي ساقهم إلى هذا التأويل المنهج الذي اتبعوه في اعتماد التراث الإسرائيلي الديني في تفصيل ما أجمله القرآن من قصص، مع أن النصوص القرآنية والحديثة لم تفتأ تحذر من التلقي عن أهل الكتاب في أمر من أمور الدين. والذي دعم تأولهم ذلك ما ورد في حديث النبي عن طبيعة المرأة من ألفاظ توحي بالشبه مع قصة الخلق، كما وردت في التراث اليهودي مثل عبارة الضلع الأعوج الذي خلقت منه المرأة ولم يذكر الحديث إطلاقاً أنه ضلع آدم مما يستبعد معه أن يكون موضوع الحديث هو المسألة التشريعية بقدر ما هو حديث عن نفسية المرأة، وخلقها وتوجيه نبوي إلى ضرورة الرفق في التعامل معها وتجنب الشدة والعنف. وذلك هو اللائق بالقائد في بيانه التوديعي للأمة (حجة الوداع) "**أوصيكم بالنساء خيراً**"،

---

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن، مجلد ٣ ط: دار الشروق.

والمناسب لسياق الخطة كلها التي كانت مجموعة توجيهات في الميدان الاجتماعي والاقتصادي والسياسي والخلقي ولم تكن درساً في العلوم الطبيعية والبيولوجية[١].

ورغم ما قد يبدو من تشابه بين اعتبار حواء من ضلع آدم خلقت، وبين اعتبارها خلقت من جنسه بعمل إلهي مباشر إلا أن الفرق في الحقيقة مهم جداً بين التأويلين على صعيد النظري والعملي. فإن الإلحاح وبدون دليل حاسم على التأويل الأول للنص القرآني لا يحمل - بشكل واع أو غير واع من أصحابه- إلا تكريس تبعية المرأة للرجل على الصعيد الاجتماعي وانمحاء شخصيتها وذوبانها في شخصيته وتكريس التميز والأفضلية على أساس الجنس مما يتنافى مع مقاصد الشريعة، على حين أن التأويل الثاني فضلاً عن مستنداته اللغوية الوجيهة وتساوقها مع جملة النصوص الواردة في الكتاب حول هذه القضية هو تأصيل لمفهوم إسلاميٍّ وإنسانيٍّ أساسيٍّ، ناضلت الحركة النسائية المعاصرة طويلاً من أجل تحقيقه وهو تحقيق استقلال شخصية المرأة وتحملها مسؤولية وجودها ومصيرها كاملاً. والقضاء على أول وأقدم اضطهاد للإنسان لأخيه الإنسان على أساس الفوارق الجسمية كخطوة أساسية للقضاء على كل تمييز يقوم على أساس العرق والعنصرية والاضطهاد، فيقوم على أساس المساواة والأخوة بدون أدنى تفاضل إلا على أساس العمل الصالح ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ وهو مقصدٌ أساسيٌّ للشرع الحنيف ولنضال الشعوب والطبقات المضطهدة منذ آلاف السنين.

---

(١) يرى المفكر الإيراني اللامع الأستاذ علي شريعتي أن القرآن أكد في مسألة الخلق على وحدة المادة التي خلق منها النوع الإنساني نفيا للفكرة المقابلة التي تؤكد - كما فعل الفيلسوف الألماني نيتشه - على اختلاف مادة الخلق الأولى بين الرجل والمرأة لتبرير الأيديولوجية العنصرية، ولإثبات دونية المرأة. أما القرآن فيقول بأن الله خلق المرأة من طبيعة الرجل (آدم) أي أن الرجل والمرأة من طبيعة واحدة- "هكذا تكلم علي شريعتي" ص. ٢٢٤ تأليف فاضل رسول، دار الكلمة والنشر، ط. ٢ بيروت ١٩٨٣.

اسكن أنت وزوجك الجنة

قصة الخلق الأولى والدخول إلى الجنة، وإذن الرب لآدم وزوجته التمتع بطيبات عدا شجرة واحدة، وإغواء الشيطان، والوقوع في الخطيئة، والهبوط إلى الأرض، هي فصول أساسية في الكتب المنزلة بل في كثير من الأدبيات الدينية والفلسفية عامة بشكل صريح كما هو الحال في القرآن وكتب اليهود والنصارى، أو بشكل رمزيٍ كما وردت في فلسفة المثل عند أفلاطون، ورغم أن موضوع تلك القصة متشابه، فإن دلالاتها ومقاصدها متباينة. ولتبيين ذلك يكفي أن نورد بعض النصوص المتعلقة بهذه القصة في القرآن وكتب اليهود والنصارى.

جاء في الإصحاح الثالث من سفر التكوين: كانت الحية أحيل جميع حيوانات البرية.. فقالت للمرأة: أحقاً قال الله تعالى لا تأكلا من كل شجر الجنة؟ فقالت المرأة للحية: من ثمر الجنة نأكل، وإنما ثمرة الشجرة التي في وسط الجنة، فقال الله: لا تأكلا منها لئلا تموتا. فقالت الحية للمرأة: لن تموتا. بل الله عالم أنه يومِ تأكلان منها تفتح أعينكما وتكونان كالله عارفين الخير والشر، فرأت المرأة أن الشجرة جيدة الأكل وأنها بهجة العيون وأن الشجرة شهية للنظر وأخذت من ثمرها وأكلت. وأعطت رجلها أيضاً معها فأكل منها وانفتحت أعينهما وعلما أنهما عريانان فخاطا أوراق تين وصنعا لأنفسهما مآزر، وسمعا صوت الرب ماشياً في الجنة عند هبوب ريح النهار، فاختبأ آدم وامرأته من وجه الرب الإله وسط شجر الجنة، فنادى الرب الإله آدم وقال له: أين أنت؟ فقال: سمعت صوتك في الجنة فخشيت لأني عريان واختبأت. فقال: من أعلمك

أنك عريان هل أكلت من الشجرة التي أوصيتك ألا تأكل منها؟ فقال آدم: المرأة التي جعلتها معي هي التي أعطتني من الشجرة، فقال الرب الإله للحيّة: لأنك فعلت هذا ملعونة أنت من جميع البهائم ومن جميع وحوش البرية، على بطنك تسعين وترابا تأكلين كل أيام حياتك، وأضع عداوة بينك وبين المرأة وبين نسلك ونسلها، هو يسحق رأسك وأنت تسحقين عقبه. وقال للمرأة: تكثيراً أكثر أتعابك حبلك، بالوجع تلدين أولاداً وإلى رجلك يكون اشتياقك وهو يسود عليك، وقال لآدم: لأنك سمعت لقول امرأتك وأكلت من الشجرة التي أوصيتك قائلاً: لا تأكل منها كل أيام حياتك، ملعونة الأرض بسببك، بالتعب تأكل منها كل أيام حياتك وشوكاً وحسكاً تنبت لك وتأكل عشب الحقل بعرق وجهك، تأكل خبزاً حين تعود إلى الأرض التي أخذت منها لأنك تراب وإلى تراب تعود.

ونسجت على نفس المنوال كتب العهد الجديد، فقد ورد في الإصحاح الحادي عشر من كتاب كورنثوس الثاني: ولكني أخاف كما خدعت الحية حواء بمكرها هكذا تفسد أذهانكم عن البساطة التي في المسيح.

ومن الإصحاح الثاني: إن آدم لم يغو، ولكن المرأة أغويت فحصلت في التعدي.

أما القرآن فقد عرضت من زوايا مختلفة يقع التركيز في كله مرة على جانب أكثر من غيره.

ورد في سورة البقرة: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ {٣٠} وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ {٣١} قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ {٣٢} قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ {٣٣} وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ

وكـــانَ من الكافرين {٣٤} وقُلْنا يا آدمُ اسكُنْ أنتَ وزَوْجُكَ الجنَّةَ وكُلا منْها رَغداً حيْثُ شئتُما ولا تقرَبا هـذه الشَّجرةَ فتكونا من الظَّالمين {٣٥} فأزلَّهما الشَّيطان عنْها فأخْرجهُما ممَّا كانـا فيه وقُلْنا اهْبطُوا بعْضُكُمْ لبعْـض عـدُوٌّ ولكُـمْ في الأرْض مُستقرٌّ ومتاعٌ إلى حي {٣٦} فتلقَّى آدمُ من ربِّه كلمات فتاب عليْه إنَّهُ هُو التَّوَّابُ الرَّحيم {٣٧} قُلْنا اهْبطُواْ منْها جميعا فإمَّا يأْتينَّكم منِّي هُدًى فمن تبع هُداي فــلا خــوفٌ عليْهم ولا هُمْ يحْزنُون {٣٨} والَّذين كفروا وكذَّبوا بآياتنا أولـئك أصْحابُ النَّار هُمْ فيها خالدُون﴾.

ومـن سـورة الأعراف: ﴿ويا آدمُ اسكُنْ أنتَ وزَوْجُكَ الجنَّةَ فكُلا منْ حيْثُ شئتُما ولا تقرَبا هـذه الشَّجرةَ فتكُونا من الظَّالمين {١٩} فوسْوس لهُما الشَّيْطانُ ليُبْدي لهُمـا مـا وُوري عنْهُما من سوْءاتهما وقال ما نهاكُما ربُّكما عنْ هـذه الشَّجرة إلاَّ أن تكُونا ملكيْن أوْ تكُونا من الْخالدين {٢٠} وقاسمهُما إنِّي لكُما لمن النَّاصـحين {٢١} فدلاَّهُمـا بغُرُور فلمَّا ذاقا الشَّجرة بدتْ لهُما سوْءاتُهما وطفقا يخْصفان عليْهما من ورق الْجنَّة وناداهُما ربُّهُما ألمْ أنْهكُما عن تلْكُما الشَّجرة وأقُل لَّكُمـا إنَّ الشـيْطان لكُما عدُوٌّ مُبينٌ {٢٢} قالا ربَّنا ظلمْنا أنفُسنا وإن لَّمْ تغْفرْ لنا وترْحمْنا لنكُوننَّ من الْخاسرين﴾ [الأعراف ١٨-٢٢].

المقارنة:

ونقف في المقارنة بين هذه القصة كما وردت في العهد القديم والجديد وكما وردت في القرآن عند بعض النقاط.

من حيث السياق، وردت القصة في أسفار أهل الكتاب في معرض الإدانة واللعن وغضب الرب بينما وردت في القرآن في معرض التكريم العلوي للنوع الإنساني: ﴿إنِّي جاعلٌ في الأرض خليفة... اسْجُدُواْ لآدم﴾.

– يرد الحديث عن الشجرة في التوراة والأناجيل كرمز للمعرفة التي يتوق البشـر إليها، ولكن الإله يمنعه منها ليبقى جاهلاً مغمض العينين، وما يحصل على تلك المعرفة إلا بمعصية الرب، فيكون جزاؤه اللعن والطرد من رحمة الله

ليـنزل إلى الأرض مغضـوباً عليه مطروداً، تلاحقه اللعنة فيشقى، بينما تمثل الشـجرة في قصة آدم في الجنة أداة لاختبار إرادة الإنسان وتدريبه على التحكم فـي إرادتـه كعنصر أساسي من تنظيم سلوكه، ولما هو مقدم عليه من التنظيم الاجتماعي.

– أما المعرفة فهي هبة من الله للإنسـان وتكريـم له ﴿**وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُـلَّهَا**﴾ بهـذا الإطلاق الدال على الإمكانيات غير المحدودة للتعلم التي أعطيها الإنسان، والتي هي السبيل لمعرفة الخالق ولتسخير طاقات هذا الكون والتطور اللامحدود. إنه بالعلم سجدت له الملائكة وسخـرت لخدمته وبالعلم يسخر الكون كلـه لخدمـته، والـنهوض بأمانة الحرية والمسؤولية والإرادة من أجل تحقيق أقصـى الكمال الإنساني، وما يجعل الوجود الإنساني على الأرض ليس غضب الإلـه ولعـنة منه حلت بالإنسان نتيجة الخطيئة الأولى، ويعبر القرآن عن هذه الغايـة بالخلافة، وهي الغاية الإلهية التي أفصحت عنها لحظة الإعلان الإلهي عن هذا الموجود الجديد: ﴿**وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِـلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً**﴾. هذا الموجود الذي كرم بالعقل والإرادة والحرية كأدوات نضالية لتحقيق الكمال الإنسـاني عـبر الكـدح الناصب والصراع المرير لاكتشاف الذات والطبيعة والسـيطرة عـليهما وتطويرهما ضمن المشروع الإلهي (الدين) وإقامة مجتمع الحق والعدل والحرية واجتثاث الطغيان والاستغلال.

وعـلى ضوء النجاح الذي يحققه هذا الموجود في نضاله من أجل تحقيق ذلـك المشروع وتجسيده على المستوى الفردي والاجتماعي والكون عامة بقدر ما ترتقي إنسانيته ويتحقق كماله ويتهيأ لحياة الخلود في نعيم أبدي مقيم ما كان هيـأ له أول مـرة، بل كانت حياته هناك مجرد تجربة ظلت ذاكرته تحتفظ بها بصورة مشرقة تحفزه ذكراها إلى مزيد من النضال ضد الأسباب التي أدت به إلى الحـرمان منها مثل الاستماع إلى وساوس الشيطان ومطاوعة أهواء النفس واندفاعاتها ومخالفة أوامر خالقه.

إنـــه يكــدح على الأرض وقلبه يرنو إلى هناك.. إلى الجنة، وكلما ازداد حنينه إلى هناك كلما ازداد كفاحه ضد الباطل والظلم والاستغلال والضياع هنا.. وليـس عليه إذا وقع في الخطأ إلا أن يراجع نفسه ويخلص توبته كما فعل في أول معصية له.

فعــلى حيــن تؤكد أسفار العهد القديم كالجديد على المرأة كعنصر إغواء أغوتها الحية وأغرتها بالأكل من الشجرة المحرمة من أجل أن تصبح وزوجها عــارفين بكل شيء خالدين لله فأخذت من ثمرها وأكلت. وأعطت رجلها أيضاً معهـــا فأكل منها وانفتحت أعينهما وعلما أنهما عريانان" حتى إذا تلقى آدم لوماً من ربه على عصيانه إياه لم يتردد في تحميل حواء مسؤولية إغوائه، فتعرضت بذلــك إلى العقــاب الإلهي فقضى عليها بألم الحمل والولادة وإخضاعها لسيدة زوجها.

أما آدم فلأنه استمع لكلام زوجته فأكل من الشجرة فقد قضي عليه بالعيش الضنك طوال أيام حياته ولعنت الأرض بسببه.

أمـــا الأناجيل فتذهب أبعد من ذلك في تحميل حواء عبء الخطيئة وتبرئة آدم مـــنها، "إن آدم لم يغو، ولكن المرأة أغويت". ولا تعجب أن تترسخ في هذه البيــئات التي سادت فيها هذه العقائد حول المرأة تصورات تقوم على احتقارها والتشــاؤم مــنها واعتبارها أحبولة الشيطان ومصدر كل بلاء ومصيبة والنظر لــلعلاقات الجنســية باشمئزاز لاقتران هذه العلاقة بالخطيئة، وليس الرهبنة إلا تعبيراً صريحاً عن احتقار العلاقات الجنسية واعتبارها دنسة مغضبة للرب، ولا عجب بعد ذلك أيضاً أن يبلغ هذا الاحتقار حد عقد المجامع في الكنيسة لمناقشة ما إذا كان للمرأة روح أم لا، فينتهي النقاش الطويل حول هذه المسألة في القرن السادس عشر في فرنسا إلى الإقرار بأن للمرأة روح ولكنها روح شيطانية!

على حين تفصل كتب اليهود والنصارى ذلك نرى قصة الخلق في القرآن حول المرأة تؤكد على اشتراكها في التكريم الإلهي كزوجها: ﴿**وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ**

وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما﴾ وتتلقى مثله الأمر بالامتناع عن الأكل من شجرة معينة وتقع مثله في إغواء الشيطان ﴿فوسوس لهما الشيطان﴾ ﴿فأزلهما الشيطان عنها﴾ فتتجه وزوجها بقلب خاشع قد عضه الندم وصح منه العزم على التوبة ﴿قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين﴾ ﴿فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم﴾.

وقد لا يذكر في القصة في بعض المواطن إلا آدم دون حواء " مع أن المراد بآدم - كما يقول صاحب تفسير المنار - النوع الآدمي على الشمول وعلى أن استعداد المرأة كاستعداد الرجل في جميع الشئون البشرية، إنه تعالى خلق البشر ذكوراً وإناثاً وأمرهما بالأكل حيث شاء عبارة عن إباحة الطيبات وإلهام معرفة الخير، والنهي عن الشجرة عبارة عن إلهام معرفة الشر، وتوبة الله تعالى عليه عبارة عن هدايته إلى المخرج من الضيق. وذكر توبة الله على الإنسان ترد ما عليه النصارى من اعتقاد أن الله تعالى قد سجل معصية آدم وعلى بنيه إلى أن يأتي عيسى ويخلصهم منها[1].

فالمسؤولية فردية ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾ - ﴿وأن ليس للإنسان إلا ما سعى﴾ ورغم أنه ليس في القرآن ولا في الحديث حول قصة آدم وزوجه ما يؤكد أو يشير حتى مجرد إشارة إلى تصورات أهل الكتاب حول الخطيئة وتحميل حواء وحدها مسؤوليتها، فقد حفلت كتب كثير من المفسرين القدامى بروايات مسندة إلى أهل الكتاب ومن أسلم منهم خاصة مثل وهب ابن منبه، نقل مثلاً إمام المفسرين أبو جعفر الطبري روايات لا أصل لها سوى كتب اليهود والنصارى مع أن النهي صريح في عدم التلقي عنهم في أمر ديننا. أما القرطبي فقد نقل عن مجهولين أن أول من أكل من الشجرة حواء بإغواء إبليس إياها،

---

(١) تفسير المنار، ج ١ ص ٢٨٢ - ٢٨٣.

وأن أول كلامه كان معها لأنها وسواس المحنة، وهي أول فتنة دخلت من الرجال على النساء(١).

وتسرب هذه الإسرائيليات إلى كتب التفسير ما يدل على مدى تغلغل التراث الإسرائيلي المسيحي في الفكر الإسلامي، وفي مكوناتنا الثقافية والتربوية مما كان له أبلغ الأثر في التصورات الخاطئة عن المرأة التي تلبست بلبوس الإسلام، وغدت أداة تحقير للمرأة وأداة هدم في بنائها الحضاري جملة – تبعاً لذلك –.

أما الأستاذ سيد قطب فقد قدم في ظلاله القرآنية من خلال قصة آدم وزوجه تصوراً كاملاً للإنسان وللعلاقات البشرية ولمنهج المعرفة في الإسلام نقتطف منه ختاماً هذه المقتطفات:

"لقد قال الله تعالى للملائكة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ وإذاً فآدم مخلوق لهذه الأرض من اللحظة الأولى، ففيم إذن كانت الشجرة المحرمة؟ وفيم إذن كان بلاء آدم، وفيم إذن كان الهبوط إلى الأرض وهو مخلوق لهذه الأرض منذ اللحظة الأولى؟" "لعلني ألمح أن هذه التجربة كانت تربية لهذه الخليفة وإعداداً، كانت إيقاظاً للقوى المذخورة في كيانه، كانت تدريباً له على تلقي الغواية، وتذوق العاقبة وجني الندامة ومعرفة العدو والالتجاء بعد ذلك إلى الملاذ الأمين". "إن قصة الشجرة المحرمة ووسوسة الشيطان باللذة ونسيان العهد بالمعصية والصمود من بعد السكرة والندم طلب المغفرة إنها هي تجربة البشرية المتجددة المكرورة.

لقد اقتضت رحمة الله بهذا المخلوق أن يهبط إلى مقر خلافته مزوداً بهذه التجربة استعداداً للمعركة الدائبة وموعظة وتحذيراً"(٢).

---

(١) الجامع لأحكام القرآن: ص٣٠٧ مجلد ١.

(٢) في ظلال القرآن، ص٦١، ج١، دار الشروق.

وليس عجباً، أخيراً، بعد أن تحولت المرأة من موضوع للخلق المباشر يوحي باستقلال شخصيتها مثل آدم إلى مجرد تابع من توابعه أو ضلع من أضلاعه، أن تتحول ضمن البوتقة الخاضعة لتأثير الثقافة اليهودية المسيحية الآفلة من مخاطب كفء للتلقي عن ربها على قدم المساواة مع زوجها ﴿اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ ... وَكُلاَ مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا ... وَلاَ تَقْرَبَا هَـذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ ﴿قَالاَ رَبَّنَا إِنَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا...﴾ أن تتحول ضمن نفس البوتقة إلى مصدر وحيد للإغواء والفتنة وأحبولة للشيطان، لا عجب أن تنتقص المرأة تحت تأثير القداسة المزعومة وتأثير التربية والضغوط الاقتصادية الدور الذي أعدت له لا كشريكة في مهمة الخلافة عن طريق النضال المتواصل لترويض طبيعتها والوجود من حولها من أجل الدفع نحو أقصى الكمالات الإنسانية على المستوى الذاتي والمستوى الاجتماعي والإنساني، أن تهون في عين نفسها فما ترتفع في نظر نفسها عن كونها جسداً ليس لها من همٍّ إلا أن تعكف على صقله وتنميقه وتطييبه لتوهم حقيقة بأنها فتنة وأحبولة للشيطان وممن؟ من طرف من هيأها ولا يزال لذلك الدور...

والأعجب من كل ذلك أن ينسب ذلك المسخ للإسلام وما هو في الحقيقة إلا خطة قوى الاستبداد والاستغلال لإلهاء الجماهير المستضعفة عن همومها ومسؤولياتها الجهادية من أجل العدل والتحرر.

الحلقة الثالثة:

وليس الذكر كالأنثى

﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ {٣٥} فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ {٣٦} فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران ٣٤-٣٧].

﴿يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران ٤١].

من مظاهر تكريم الإسلام للنساء إعادة الاعتبار لهن ككائنات إنسانية حرة ومسؤولة، ورفع آصار وأغلال قرون الظلم الطويلة التي رزحن تحتها، من مظاهر ذلك تنويه القرآن والحديث بمجموعة كبيرة من النماذج النسائية في مختلف الميادين التعبدية والسياسية والاجتماعية والجهادية، ولعل أهم هذه النماذج على الإطلاق في تاريخ الملحمة الدينية النسائية مريم عليها الصلاة والسلام فقد اصطفاها الله على نساء العالمين بإطلاق يشمل الزمان والمكان كله، بل إنها كما قال عليه السلام: "**سيدة نساء أهل الجنة**" ومجدها القرآن بهذا التكريم الإلهي الرائع: ﴿**يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ**﴾[1] وبلغت درجة من الصلاح والتعبد أن ناداها قومها ﴿**يَا أُخْتَ**

---

(١) ذكره القرطبي في جامعه، مجلد ٤ ص.٨٤.

﴿هَارُونَ﴾ [مريم: ٢٧] رغم تباعد الزمن بينها وبين هارون وعدم وجود نسب غير النسب الروحي والمشابهة بين هذه الفتاة العابدة وبين النبي هارون، وقد كان مضرب الأمثال في الصلاح والعبادة عند بني إسرائيل، ولقد حققت بولادتها ونشأتها معجزات توجت بأعجب حدث في تاريخ التناسل البشري ليس له من نظير غير قصة الخلق الأولى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾.

كانت بشارة مريم بحملها عيسى عليهما السلام وهي العابدة الطاهرة البكر التي تربت على يدي نبي في محراب العبادة والتقى امتحاناً رهيباً ما كان ليغيّر شخصيتها الفذة أن تنوء تحته وتسحق ﴿يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾[١]. وتحققت بذلك أمنية أم مريم بأكبر ما كانت تأمل، فغدت ليس مجرد أم لسادن معبد بل أما لمرشد من أكبر مرشدي البشرية، لقد كانت ولادتها مفاجأة كبرى لأمها، مفاجأة "غير سارة" لا لكونها بنتاً بل لأن تلك الأم الصالحة التي يبدو أن العمر قد تقدم بها دون أن تنجب فأنذرت إن هي ولدت ولداً تهبه محررا لخدمة المعبد لا يشغله عن ذلك شاغل من شواغل الدنيا، وقد استقر في خلدها أن تلد ولداً ذكراً ولعلها بشرت بذلك، فلما كان المولود أنثى أبدت شديد الأسف والحسرة والأسى على ما فاتها من الوفاء بنذرها: ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾.

ولقد انتزع البعض هذه الكلمات من إطارها فأخذ كثير من المفكرين قوله تعالى ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنثَى﴾ فتكلفوا في توجيه تقديم الذكر على الأنثى[٢]، بينما وردت هذه الكلمات في سياق تكريم الأنثى ودعوة امرأة عمران إلى نبذ الهواجس وضروب الأسى التي ملأت قلبها وهي تفجع في الأمل التي تعلقت به

---

(١) مريم: ٢٢.

(٢) الميزان في تفسير القرآن، ص ١٧٢.

طويلاً، أن يكون لها ولد تتنازل عن حقها فيه وتفرغه لخدمة المعبد، فإذا بالأمل يتبخر في لحظة، فما عساها تجدي أنثى في وظيفة هي عادة من وظائف الرجال.. ولكنها لم تملك وقد فجعت في أملها إلا أن تشكو إلى ربها أساها وحسرتها ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى﴾ والله قطعاً علم بما وضعت، فأجيبت ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتِ﴾ "بكسر التاء" أو ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾ "بتسكين التاء" تعقيباً من الله على قولها لبيان أن الله يعلم قيمة وأهمية ما وضعت - وهي لا تعلم- ولو علمت لاستيقنت أن الله سيحقق عن طريق هذه الأنثى ما كانت تتمناه بأحسن وجه وأرضى طريق، ولو كانت تعلم ما أراده لها لم تتحزن ولم تتحسر فليس الذكر الذي طلبته كالأنثى التي أعطيتها، بل هذه الأنثى خير مما كانت ترجو من الذكور.

يقول صاحب الكشاف في تفسير هذه الآية "فإن قلت: فلم قالت إني وضعتها أنثى وما أرادت إلى هذا القول (أي وما أرادت إعلام الله بذلك)؟ قلت: قالته تحسراً على ما رأته من خيبة رجائها وعكس تقديرها، فتحزنت إلى ربها لأنها كانت ترجو وتقدر أن تلد ولداً ذكراً نذرته محرراً للسدانة، ولتكلمها على وجه التحسر والتحزن، قال الله تعالى ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾ للتعظيم للموضوع والرفع منه، ومعناه ليس الذكر الذي طلبت كالأنثى التي أعطيتِ، فمالك تتحسرين وقد أعطيت أنثى خير من الذكر الذي كنت تطلبين، فليس لتحزنك وأسفك من سبب غير الجهل بقيمة هذا المولود وما أودع فيه من أسرار وعجائب ومعجزات وما سيترتب عن ذلك من تغيير في الأنفس والآفاق وفي المصير البشري جملة، وذلك نظير قوله تعالى: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة ٢١٥]. فما ينبغي للمؤمن وهو يسير على هدي من ربه أن يتحسر على شيء ﴿لِكَيْ لَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ﴾ [الحديد ٢٢].

فما يفعل الله به وله في المحصلة النهائية إلا ما هو أمثل له...

ولم تلبث هذه المناجاة من أم مريم لربها أن أورثتها سكينة في القلب ورضى بما قدر الله لها، فبادرت إلى تسمية هذه الوليدة "مريم" قيل بمعنى العابدة، وسألت لها الله أن يكون في رعايتها وذريتها، فاستجاب لها ربها وأنشأها على يد أحد أنبيائه الكرام في محراب العبادة هو أحد أقاربها زكريا، بعد أن تنازع على تربيتها كبار أحبار المعبد وظهرت على يدها عجائب في الدلائل على صلاحها وتقواها ورعاية الله لها. وأفاض عليها ربها من صنوف الخيرات ما لفت نظر كافلها النبي زكريا، وعجب لأمرها، فسألها عن هذه الخيرات التي استفاضت من حولها فما زادت أن قالت: ﴿هِيَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ بكل خشوع وتواضع وإخلاص مما أغراه وقد رأى رأي العين خيرات الله ونعمه تفيض أن يتوجه إلى ربه المنعم بكل هذه النعم أن ينعم عليه هو أيضاً بما هو في لهفة إليه: أن يكون له وهو الشيخ الهرم ولد يخلفه ويؤنسه حتى إذا اكتملت إيماناً وصديقية نادتها الملائكة تبشرها باصطفاء الله لها على نساء العالمين من حواء إلى آخر امرأة تقوم عليها الساعة[1]. وإن الله طهرها من الرجس الذي يغرق فيه قومها وبرأها مما سيرميها به قومها من الافتراءات لكي تتهيأ لتلقى أمر الله المباشر "كن" كما تلقاها الطين الذي جبل عليه أول إنسان (آدم) ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ لكي تتهيأ لذلك الامتحان العسير أوحى إليها ربها بطول القيام والركوع والسجود مع المصلين في المعبد وقد كانت ملازمة لمحرابه[2]، كما أمر النبيون من قبلها ومن بعدها وهم يتهيئون لتلقي كلمات الله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ {١} قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلاً {٢} نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً {٣} أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً {٤} إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً﴾ [المزمل ١-٣].

---

(١) تفسير المنار م٣، ص٣٠٠.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، م٢ ص٨٣.

وهكذا تهيأت لذلك الحدث العظيم لحمل عيسى (كلمة الله وروحه)، وتهيأت بإيمانها وقوة شخصيتها لمجابهة مجتمع كامل يرميها وهي الطاهرة المطهرة في أعز ما تملكه أنثى في طهارتها وشرفها.

ولكنها تصبر وتدأب على رعاية ابنها وتربيته وإعداده للأمر العظيم الذي ينهض به لاستنقاذ قومه من وحلهم وسقوطهم، وإن الاقتران المتواصل في القرآن بين المسيح وأمه مريم ليست دلالته الوحيدة سلبية أي نفي العقائد المنحرفة في عيسى أنه ابن الله، بل له دلالة إيجابية هي تكريم مريم عليها السلام بل تكريم كل امرأة من خلالها تكريماً بما لم تكن النساء يحصلن عليه من شرف خدمة المعبد فقد كانت مهمة خاصة بالرجال[1]. وكأن النساء رجس لا يحق لهن الاقتراب من المواطن الطاهرة - وتكريماً بمخاطبة الملائكة وتلقي الوحي عن الله، فكانت أشهر نبية من جنس النساء، وتكريماً بتلقي كلمة الخلق المباشر (كن) تلك الكلمة التي خلق بها آدم في أول قصة الخلق، فكان خلق عيسى في رحم أمه بنفس الكلمة، بنفس الطريقة، وتكريماً بعد كل ذلك بتكفيلها وحدها بتربية رسول من أولي العزم من الرسل، وتشريفاً بنسبة عيسى إليها ونسبتها إليه حيث ينتسب غيره إلى الرجال، بينما دعي هو إلى أمه دون أن يكون ذلك غضاضة عليه.

نبوّة مريم ونبوّة النساء:

شغلت هذه المسألة أذهان كثير من العلماء حتى جعلوا منها قضية يدور الجدل حولها بين متبنين ورافضين، وكأن هؤلاء الرافضين لنبوة النساء - رغم أنهم قلة - كما ذكر الإمام القرطبي قد استكثروا على النساء هذه المرتبة... وكأن كل فضيلة في الرجال هي سيئة في حق النساء كما صرح بذلك بعضهم[2]، مع أن التساوي في النوع الإنساني ذكوره وإناثه أصل لا حياد عنه

---

(١) كان للنساء مساهمة في تنظيف المسجد في عهد الرسول عليه السلام.
(٢) نسب بعضهم إلى الإمام علي قوله: شر خصال الرجال خير خصال النساء.

إلا بدليـل قاطع. وجُلُّ ما تعلق به نفاة النبوّة عن النساء مجرد تأولات للمتشابه من القرآن، مثل قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾ [يوسف ٨]، وقوله تعالى: ﴿وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ﴾ [المائدة ٧٤].

يقـول الفخر الرازي في تفسيره: "اعلم أن مريم عليها السلام ما كانت من الأنبياء لقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً﴾ وإذا كان كذلك فإن إرسال جبريل عليه السلام إليها إما أن يكون كرامة لها أو إرهاصاً لعيسى عليه السلام أو معجـزة لزكـريا عليه السلام، ومن الناس من قال أن ذلك كان على سبيل النفث في الروح والإلهام والإلقاء في القلب كما كان في حق موسى عليه السلام في قوله: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى﴾"[١].

أمـا شـيخ الإسـلام ابن تيمية فقد ذكر أن القاضي أبا يعلى وأبا المعالي وغيـرهم أنه قد انعقد الإجماع على أن ليس في النساء نبية والقرآن والسنة دلاّ على ذلك كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾ وقولـه ﴿مَّا الْمَسِيـحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ﴾ ذكر أنه غاية ما انتهت إليه أمه الصديقية[٢]. وما تمسك به نفاة النبوّة عن النساء لا ينهض حجة مقنعة في إثبات ما ذهبوا إليه.

فقد ذهب أكثر من مفسر إلى أن "رجالاً" في قوله تعالى: ﴿وما أرسلنا قبلك إلا رجالاً﴾ لا تدل على الجنس "الذكور" وإنما تدل على النوع الإنساني.

يقول صاحب "التحرير والتنوير" في تفسير هذه الآية: والرجال اسم جنس جـامد لا مفهوم له وأطلق هنا مراداً به أناساً كقوله ﷺ: "**ورجل ذكر الله خاليا ففاضـت عيناه**" أي إنسان أو شخص، وليس المقصود به الاحتراز عن المرأة وليـس تشخيص الرجال وأنهم من أهل القرى لقصد الاحتراز عن النساء ومن أهـل البادية ولكنه لبيان المماثلة بين من سلموا برسالاتهم وبين محمد ﷺ حين

---

(١) التفسير الكبير للفخر الرازي ج٧ ص٤٣، طبعة طهران.

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية، مجلد ٤ ص٣٩٦ مطابع الرياض.

قــالوا ﴿فليأتنا بآية كما أرسل الأولون﴾ وقالوا: ﴿لولا أوتي مثل ما أوتي موسى﴾ أي فمــا كان محمد ﷺ بدعاً من الرسل حتى تبادروا بإنكار رسالته وتعرضوا عن النظر في آياته فالقصر (وما أرسلنا... إلا) إضافي أي لم يكن الرسل عليهم الســلام قبلك ملائكة أو ملوكاً من ملوك المدن الكبيرة، فلا دلالة في الآية على نفي إرسال رسول من أهل البادية مثل خالد بن سنان ويعقوب عليه السلام حين كان ساكناً في البدو"(١).

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين﴾ يذهب الشيخ ابن عاشور إلى أن الاصطفاء الأول اصطفاء ذاتي وهـو جعـلها منزهة زكية والثاني بمعنى التفضيل على الغير، ونساء العالمين نســاء زمانهــا أو نساء سائر الأزمنة. وتكليم الملائكة والاصطفاء يدلان على نبوءتها والنبوءة تكون للنساء دون الرسالة"(٢).

ويؤكد الإمام القرطبي في جامعه إلى أن ظاهر القرآن والأحاديث يقتضي أن مــريم أفضــل مــن جميع نساء العالم من حواء إلى آخر امرأة تقوم عليها الســاعة، فــإن الملائكة قد بلغتها الوحي عن الله عز وجل بالتكليف والإخبار والبشــارة كما بلغت سائر الأنبياء فهي إذن نبية، والنبي أفضل من الولي فهي أفضــل من كل نساء الأولين والآخرين مطلقاً. وقد خص الله مريم بما لم تؤته أحــداً من النساء، وكذلك أن روح القدس كلمها وظهر لها ونفخ في درعها ودنا مــنها للــنفخة، فليس هذا لأحد من النساء، وصدقت بكلمات ربها ولم تسأل آية عندما بشرت كما سأل زكريا صلى الله عليه وسلم من الآية ولذلك سماها الله في تــنزيله صديقة: ﴿وأمه صديقة﴾ وقال: ﴿وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانــتين﴾، فشهد لها بالصديقية وشهد لها بالتصديق بكلمات البشرى وشهد لها بالقــنوت، وعندما بشر زكريا بغلام فلحظ إلى كبر سنه وعقامــة رحم امرأته

---

(١) تفسير التحرير والتنوير: سماحة الإمام الشيخ م. الطاهر بن عاشور، ج١٣ ص٦٨ الدار التونسية للنشر.
(٢) التحرير والتنوير، م ن، ج٣: ص٢٤٤.

فقال: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾ فسأل آية، وبشرت مريم بالغلام فلحظت أنها بكر ولم يمسسها بشر، فقيل لها ﴿كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ﴾ فاقتصرت على ذلك وصدقت بكلمات ربها ولم تسأل آية ممن يعلم كنه هذا الأمر. وما لامرأة في جميع نساء العالمين من بنات آدم ما لها من هذه المناقب، ولذلك روي أنها سبقت السابقين مع الرسل إلى الجنة. جاء في الخبر عنه ﷺ: "**لو أقسمت لبررت، لا يدخل الجنة قبل سابقي أمتي إلا بضعة عشر رجلاً منهم إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وموسى وعيسى ومريم ابنة عمران**"، وقد لا يحق على من انتحل علم الظاهر واستدل بالأشياء الظاهرة على الأشياء الباطنة أن يعرف قول الرسول ﷺ: "**أنا سيد ولد آدم**" وقوله: "**لواء الحمد يوم القيامة بيدي ومفاتيح الكرم بيدي وأنا أول خطيب وأنا أول شفيع**"، فلم ينل هذا السؤدد في الدنيا على الرسل إلا لأمر عظيم في الباطن، وكذلك شأن مريم لم تنل شهادة الله في التنزيل بالصدقية والتصديق بالكلمات إلا لمرتبة قريبة دانية، ومن قال: لم تكن نبية، قال: لم تكن رؤيتها للملك كما رؤي جبريل عليه السلام في صفة دحية الكلبي حين سؤاله عن الإيمان والإسلام، ولم يكن الصحابة بذلك أنبياء والأول أظهر وعليه الأكثر - أي أكثر العلماء - والله أعلم.

إن أكمل نوع إنساني الأنبياء ثم يليهم الأولياء من الصديقين والشهداء والصالحين، وإذا تقرر هذا فقد قيل أن الكمال المذكور في الحديث: "**كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء غير مريم بنت عمران وآسية امرأة فرعون**" يعني به النبوّة، فيلزم أن تكون مريم بنت عمران وآسيا نبيتين، وقد قيل ذلك والصحيح أن مريم نبية لأن الله أوحى إليها بواسطة الملك كما أوحى إلى سائر النبيين[1].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، ج٤، ص٨٣-٨٤.

وأهم الأئمة الأعلام الذين تناولوا هذه المسألة بعمق وتوسع أبو محمد بن حزم في كتابه الفصل في الملل والأهواء والنحل - حيث عقد فصلا خاصا بعنوان "نبوة النساء" ننقل إليك أخي القارئ أهم ما جاء فيه، ولقد بدأ أبو محمد رضي الله عنه بحثه في المسألة بتعجبه من إثارة هذه المسألة في قرطبة، بينما لم تشهد مدائن الإسلام الأخرى جدلاً مماثلاً يقول: "هذا فصل ما حدث التنازع العظيم إلا عندنا بقرطبة وفي زماننا، فإن طائفة ذهبت إلى إبطال كون النبوّة في النساء جملة، وبدعت من قال بذلك، وذهبت طائفة إلى أنه قد كان في النساء نبوة، وذهبت طائفة إلى التوقف في ذلك.

وينطلق ابن حزم في حسم النزاع في تحليل معنى النبوّة وهي مأخوذة من الإنباء وهو الإعلام، فمن أعلمه الله عز وجل بما يكون قبل أن يكون أوحى إليه منبئاً له بأمر ما فهو نبي بلا شك، وليس هذا من باب الإلهام الذي هو طبيعة لقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾، بل الوحي الذي هو النبوّة "قصد" من الله تعالى إلى إعلام من يوحي إليه.. علماً ضرورياً إما بمجيء الملك إليه وإما بخطاب يخاطب به في نفسه دون وساطة فإن أنكروا أن يكون هذا هو معنى النبوّة فليعرفونا معناها فإنهم لا يأتون بشيء أصلا، فإن كان ذلك كذلك فقد جاء القرآن بأن الله عز وجل أرسل ملائكته إلى نساء فأخبروهن بوحي حق من الله تعالى فبشروا أم إسحاق بإسحاق: ﴿وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَقَ يَعْقُوبَ﴾ ﴿قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَاْ عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ {٧٢} قَالُواْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللّهِ رَحْمَتُ اللّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ ، ولا يمكن أن يكون هذا الخطاب من ملك لغير نبي بوجه من الوجوه ووجدناه تعالى قد أرسل جبريل إلى مريم أم عيسى عليهما السلام وقال لها: ﴿إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾.

فهذه نبوة صحيحة بوحي صحيح ورسالة من الله تعالى إليها، وجدنا أم موسى عليها الصلاة السلام قد أوحى الله إليها بإلقاء ولدها في اليم فصح يقيننا أن الوحي الذي ورد لها في إلقاء ولدها في اليم كالوحي الوارد على إبراهيم في

الرؤيا في ذبح ولده، فصحت نبوتهن جميعاً بيقين. وقد ذكر من الأنبياء عليهم السلام في سورة "كهيعص" ذكر مريم في جملتهم ثم قال عز وجل: **﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾**.

وهذا هو عموم لها معهم لا يجوز تخصيصها من جملتهم، وليس قوله تعالى وأمه صديقة بمانع أن تكون نبية، فقد قال تعالى: **﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ﴾** وهو مع ذلك نبي رسول. وهذا ظاهر وبالله التوفيق. ويلحق بهن عليهن السلام في ذلك امرأة فرعون. يقول رسول الله ﷺ: "**كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا مريم بنت عمران وآسيا بنت مزاحم امرأة فرعون**"، والكمال في الرجال لا يكون إلا لبعض المرسلين، لأن من دونهم ناقص عنهم بلا شك، وكان تخصيصه ﷺ مريم وامرأة فرعون تفضيلا لهما على سائر من أوتين النبوّة من النساء بلا شك[1].

وبعد..

ماذا يستفيد المسلم اليوم من إعادة طرح قضية نبوة المرأة وقد تم ختم النبوّة بظهور النبي الخاتم محمد ﷺ. أليس الخوض في هذه المسألة جملة ضرباً من الجدل المبدد للطاقة؟ أليس ذلك هو السبب في انصراف الإسلاميين المعاصرين عن هذا البحث؟ إن الأمر قد يبدو لبادي الرأي كذلك وما هو كذلك فإن أمة مثل أمتنا لا يزال التراث (إنتاج الماضي) يمثل أحد المؤثرات الفعالة في واقعها بعيداً جداً أن يحدث فيها أي تحول ثوري دون تمحيص جاد لذلك التراث، يمتحن مفاهيمه ليدعم منها ما كان تعبيراً عن الحقيقة الإسلامية المطلقة ويوظفه في عملية التحول الثوري ويوهن ويسفه ما كان ثمرة لقصور لعصر من العصور وتخلفه وانحطاطه، ولكنه في غياب النقد الجاد ظل يعامل كجزء من الحقيقة الإسلامية المطلقة في قدسيتها وأحقيتها في توجيه العقول والمشاعر والأذواق والمسالك والتنظيمات، وإن من أهم المواضيع التي لا يزال

---

(١) ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل، م٣، ص ١٧-١٩، دار المعرفة بيروت، لبنان.

الإسلاميون يتعاملون معها من خلال الخلط بين الحقيقة الإسلامية والحقيقة التراثية موضوع المرأة، فيتعرفون على الموقف الإسلامي في هذه القضية وغيرها بالرجوع إلى كتب التفسير والفقه آخذين محتوياتها وكأنها ناطق رسمي باسم الحقيقة الإسلامية المطلقة، فيتحول التراث من كونه عامل تثوير للواقع في اتجاه الإسلام إلى معوق أساسي دون عملية التحول تلك، وتذهب جهود الدعاة أو كثير منها هدراً، بل يتحول عملهم إلى عامل استمرار للماضي في الحاضر ودعم إلى هذا الحاضر الذي نتألم من استمراره ونطمع إلى تغييره ويأخذنا الوجوم والاندهاش من صلابته وتأبيه كل تحول.

الخلاصة:

إن ما انتهينا إليه من تأملات حول النصوص الواردة في هذه القضية وما دار حولها من جدل يتلخص في:

● إن الجملة المختصرة - وليس الذكر كالأنثى- لا علاقة لها البتة بالمعنى الذي حملت عليه تعسفا من تفضيل الذكر على الأنثى، فهي لا تخرج في السياق الذي وردت فيه عن الدلالة على أحد المعنيين:

أ- الاختصاص: فليس يصلح أحد الجنسين لكل ما يصلح له الآخر. فقد يكون أحدهما مؤهلاً لوظائف لم يؤهل لها الآخر مما يندرج ضمن قاعدة تقسيم العمل في مرحلة من مراحل تطور المجتمع.

ب- التسرية: على امرأة عمران وإذهاب ما داخلها من غمّ بولادة أنثى وقد نذرت وليدها لمهمة دينية كانت العادة تقتضي أن يكون ذكراً فجاء التصحيح الإلهي لتلك المعتقدات الاجتماعية البالية من خلال توجيه الخطاب الإلهي إلى تلك الأم الأسيفة وما كان لك أن تأسي وتحزني، فقد أنعم الله عليك بخير مما كنت تأملين وتتمنين. معيدا الاعتبار لا لهذه المولودة فحسب، بل للأنثى كل أنثى من خلال ذلك.

●● إن الـثورة التي فجرها الإسلام والجهاد المرير الذي خاضه من أجل إعـادة الاعتبار الإنساني في العدل والحرية والمساواة للمستضعفين من الرجال والنساء والولدان ممن سحقتهم مجتمعات الإقطاع والاستبداد والتي كان لها الأثر الفعـال والعميـق فـي تـاريخ حركة التحرر على جميع المستويات السياسية والاقتصـادية والاجـتماعية ومن ذلك حركة التحرر النسوية، فقد ذهبت الثورة المضـادة بكـثير من كسب تلك الثورة وآثارها في الواقع وصحب ذلك ودعمه جهـود تنظيرية لتكريس الحيف الاجتماعي والاستبداد السياسي والفوارق على أسـاس الجـنس والـلون والطبقة، كل ذلك باسم الإسلام، باسم القرآن والسنة وإجمـاع العـلماء. وفي هذا الإطار ثار الجدل حول كثير من القضايا همشت رسـالة الإسـلام وثورته الفكرية والاجتماعية مثل قضية نبوة المرأة رغم أن اعتقاد الجميع في استحالة ظهور نبوة جديدة رجالية أو نسوية مما يؤكد الوظيفة الاجتماعية لهذا الجدل في تهميش دور المرأة من وراء التأكيد على عدم تأهلها الطبيعي لذلك التكريم والشرف.

وهـو تـأكيد لا يسـتند إلى نص قاطع من كتاب أو سنّة مما احتاج معه المدافعـون عـنه إلى ادعاء انعقاد الإجماع على ذلك وهو ادعاء قامت الحجج قديماً وحديثاً على نفيه، بل إن أكثر العلماء على خلافه، كما أكد الأمام القرطبي في تفسيره، مما يجعلنا - ولئن سلمنا نظرياً بحجيّة الإجماع كمصدر من مصادر تجديد الشريعة نتوقف كثيراً لنتثبت انعقاده حقيقة في مسألة من المسائل..

وتـأكيد الإمكـان التاريخي لحصول التنبؤ النسائي رغم اعتقاد نفي ذلك الإمكان بعد ظهور النبي الخاتم ﷺ فضلا عن كونه يمثل في ذاته نفياً لتحريف الحقيقة الإسلامية يحمل دلالات كثيرة في مجال ثورة الإسلام وأبعادها الإنسانية فـي تحرير المستضعفين من الرجال والنساء والولدان، لأن أول اضطهاد كما يقول رجاء غارودي عرفه التاريخ هو اضطهاد النساء، مما يجعل نسف الأسس التي يقوم عليها ذلك الاضطهاد خطوة ضرورية لنسف كل اضطهاد آخر.

ومن دلالات ذلك تأكيد اتجاه المرأة التي تعتقد أنه ليس في بنيتها الطبيعية ما يحول بينها وبين بلوغ درجات الكمال الإنساني والتكريم الإلهي (النبوّة)، اتجاهها نحو اكتشاف نفسها لا باعتبارها مجرد جسد هو كل رصيدها في معركة الحياة مما يقتضيها العكوف على التفنن في إخراجه وتشكيله بحسب متطلبات السوق الرجالي، بل باعتبارها مشروعاً إنسانياً يحمل إمكانيات هائلة للترقي والكمال، وهو مشروع إنما يتحقق عبر النضال الدائب والجهاد الناصب والكدح المرير ضد قوى الانحدار والتهابط والشر والاستبداد على المستوى النفسي والاجتماعي لتحقيق مجتمع العدل والمساواة والتحرر تمثل أقصى ما يمكن أن تمثله من الكمالات الإلهية والأسماء الحسنى في هذه الحياة الدنيا.. إن مجال الترقي مفتوح أمام الجميع رجالاً ونساءً عرباً وعجماً، مفتوح على مصراعيه بدون أي عائق من نسب أو لون لأنه لئن كانت النبوّة قد تم بنيانها، فإن إرثها وهو رصيد هائل من القيم والكمالات أمانة في عنق الوارثين من الرجال والنساء.. فليس على الجميع إلا أن يحاولوا وأن يضعوا أنفسهم في الطريق الصاعد.. زادهم إقبالٌ جادٌّ على الله ﴿**يا مريمُ اقنتي لربكِ واسجُدِي واركعي مَعَ الرَّاكعين**﴾. نعم يا مريم، إنها تنادى باسمها من الملأ الأعلى كما النبي ﷺ يدعو نساءه وبناته ونساء المسلمين بأسمائهم - على ملأ من الناس - دونما أي تحرج أو تأثم أو استخدام للإشارة إيحاء بتخلق زائف وكأن المرأة عورة كلها حتى اسمها.

يا مريم كلَّ زمان ومكان يا أختاه، ونداء الحق والسمو والجهاد والثورة في الملأ الأعلى يناديك: أقنتي لربك وأقبلي عليه بإخلاص تستمدين منه القوة لتحطيم أغلال القرون.. أغلال الإقطاع والاستغلال، وأغلال استغلال رأس المال، وأغلال إيديولوجيات التخلف والتبعية والاستعمار التي تريدك جسماً منمقاً مزخرفاً قابلاً للتشكل والاستمتاع والاستغلال كما يشاء الرأسماليون والطغاة..

فيا مريم، يا أخية حذار من الوقوع في شباكهم وانضمي إلى قافلة الإيمان وكتيبة الثورة والرفض. رفض الخضوع إلا للحق تبارك وتعالى.. فاقنتي لربك واركعي مع الراكعين.